باب التربية والتعليم

الشذرة الرابعة عشرة من جريدة الدكتور اراسم (*)

(التربية بركوب البحر)

عن ميناء لوندرة في ٣ مارس سنة ١٨٦٠

(في البحر) تقرر أن يقلع أصحاب السفينة التي نقلنا في يومين وها نحن أولاء تسام فيها من الآن

ذلك أني كنت قرأت في الصحف الانكليزية منذ ستة أسابيع اعلاناً بأن سفينة تسمى الوينيتور تسافر عما قليل الى بلاد البيرو فلم ألبث عند وصولي الى لوندرة ان سألت عنها ولاقيت ربانها في أحواض الميناء وهو رجل في نحو الثانية والأربعين من عمره أسمر قصير بادن تؤذن بدانته بأن ستنتهي بسمن مفرط مع ماهو فيه من معيشة الجد والنشاط . ويطري الناس خبرته ومتانة سفينته واني قلما صادفت وجها أطلق من وجهه وأدل منه على الذكاء والاستقامة وقد تبين لي أنه عرف في موانى استراليا ربانا جسوراً انقطع للملاحة لايعرف غيرها كنت سافرت معه فيما سبق واتخذته صديقاً فلما علم اني صديق صديقه أقبل عليّ بصدر رحب وقلب سليم وكان من نتيجة هذا التعارف ان اتفقنا على ان أكون طبيباً للسفينة كما كنت لذلك الصديق وان يكون «أميل» تلميذاً بحرياً في مدة السفر

لما سمعت والدته بهذا ارتاعت في أول الأمر لما توقعته له من سوء العاقبة في ذلك العمل فاجتهدت في تسكين روعها مبيناً لها مقاصدي منه

بلغ «أميل» الآن من السن أكثر من ثلاث عشرة سنة وأصبح طويل القامة قوي الجسم يتمتع بصحة تامة من أسبابها فيما أرى نظام المعيشة الذي جرى عليه وقد بدا لي ان اشتغاله بتعلم الملاحة فرصة مفيدة لتربية قوته البدنية وشد أعضائه وتذليل

(*) معرب من باب تربية اليافع من كتاب أميل القرن التاسع عشر . وهو تابع لما نشر في الجزء الرابع عشر من المجلد السادس

عضلاته بأعمال تقتضي من المهارة مثل ما تقتضيه من الشجاعة الحقيقية فاني وهيلانة ماقصدنا قطعاً أن نجعله واحداً من أحبة العلم الفاسد الذين لاحياة لهم الا في رؤسهم فليعجب من شاء بأولئك المراهقين السقام المخدجين (١) الذين أعجزهم الدرس عن العمل فليس هذا هو الكمال الذي نطلبه « لاميل »

ورأيت الناس في مكان لايحضرني اسمه الآن يجرحون باطن الصدفة في بعض الحيوانات الرخوة بطرف خنجر ليحملوا هذه الحيوانات على توليد اللؤلؤ بالصناعة فذلك يشبه أن يكون شأن المربين مع أحسن التلامذة فهم يتلفون بناهم وينهكون أجسامهم ولا أدري أي قصد لهم في ذلك سوى الحصول على مجموع من المعاني تحجر في أذهانهم تواضعوا على أن يسموها علماً واني لفي شك من أن مايحصله المتعلمون من تلك المعاني يعوضهم شيئاً مما خسروه في سبيل تحصيله من قواهم وما أتلفوه من صحتهم . ولست أقصد بقولي هذا تثبيط المتعلمين عن العلم فان الانسان خلق ليعلم وانما أريد أن يفهموا أن العمل البدني والعمل العقلي متكافئان في لزومهما لتقوية العقل وإحصافه فعلينا ان نربي كل ماوهبه الله لنا ولا نستخف بشيء منه

استشرت « اميل » قبل اعتزامي على هذا الفكر فألفيته مملوء النفس به لانه كجميع أترابه يحب الجديد ويأنس من نفسه فخراً بتعاطيه حرفة . ويجب في هذا المقام أن أبين مرادي وهو أني لاأعتقد بحال أن من حقي ان اختار لولدي عملا تقوم به معيشته كما أني لاأدعي لنفسي حق إلزامه الايمان بعقيدة دينية أوسياسية على انه لما يأت وقت التفكير في الحرفة التي ينبغي أن يشتغل بها ولا أدري هل يعرف بنفسه مايلائمه من الحرف أم لا فان تربيته في غاية البعد عن نهايتها بل هي في بدايتها ولكني أرى انه مهما حذق المربي في التبكير بانشاء الطفل على الميل الى النفع والطمع فيه لم يكن ذلك منه عجلة مذمومة ولقد عرف « اميل » مما تلقاه على والده من الدروس شرف العمل وكرامته فتراه يخيل الآن انه سيكسب أجرة سفره بتسنقد شرع السفينة وهو تخيل غير صحيح الا في جزئه غير اني تحاميت كل التحامي لزالة هذا الوهم من نفسه وتركت له ان يفخر بانه يطعم خبزه الجاف بكده ونصبه فان أقل مافي هذا انه مفخرة

(١) المخدج هو الذي يولد ناقصاً بعد تمام مدة الحمل

كنت جديرا باللوم لو أني حرمته منها

ثم ان التعليم في سفينة تجارية مفيد ومقو للعقل خصوصا اذا كانت مدته لا تتعدى بضعة شهور فخير ما يتعلمه الانسان على ظهر البحار هي ان لا يخضع الا الى الواجب فطاعة البحار في الحقيقة فيها شيء من الاختيار وهذه هي الخاصة الفارقة بينه وبين الجندي فالرجل الذي يرى من نفسه الجهل ببعض نواميس الكون فيدي من قوتها ما يكفي لامتثال أمر الربان وهو يعلمه يقول موجز ما جهله من تلك النواميس يكون قد جمع في عمله هذا بين الاستقلال والحكمة

لست أبالغ لنفسي مطلقا فيما لهذا التعلم من الآثار الحسنة والنتائج المفيدة فاني أعلم ان « اميل » لن يكون بحارا لمجرد ما يمارسه من ضروب التمرن في حبال السفينة بدان بلاءه في ذلك لا يمكن أن يخلف عنه استفادته منه فانه بواسطته يتعلم شيأ من أحوال البحر وبه يعرف أجزاء السفينة الاساسية وما يطلق عليها من الاسماء فكثير من أترابه لا يعرفون شيأ من امر هذه الدنيا السابحة

أخص ما أعنى به في هذا الامر أن يحصل في ذهنه بالاختبار والمشاهدة معنى من القوى الكونية العظمى وما يلزم للانسان في مقاومتها او قهرها من ثبات الجاش وحضور الفكر وسيكون هذا أعظم درس له في سفره. وما لا يسعني الآن أضحك منه اني أسمع بعض المعلمين يقولون لغلمانهم المتبطلين الذين ورموا من سفرهم كبرا وغرورا انهم ملوك الخلق فهلا وصفوهم أيضا بان أيديهم البيضاء الرقيقة لم تخلق الالتقود عجلة الشمس في ارجاء السماء ؟ ويحك أيها المعلمون تقولون هؤلاء الملوك امام البحر فانظروا واما اعتريهم من الرعب خشية أن تبصق امواجه الكثيفة في وجوههم

واما (اميل) فانه لا بد أن يتعلم من الآن ما يجب أن يبذله الانسان في سبيل سيادته على الفواعل الكونية وكيف ينبغي أن يكون معها في كفاح مستمر ليحفظ سلطانه على عرش الماء

حادثت الربان وهو رجل شهم في شأن ولدي وكاشفته بفكري في تربيته ففهم حق الفهم الدرس الذي أردت تعليمه اياه وهو أن من المفروض على الشبان أن يعتبروا العمل العقلي جزاء للعمل البدني ومكافأة عليه اه